الفصل الخامس

الرسالة والشدائد

بعد الخروج من المحنة التي نجمت عن التجربة الأولى لنزول الوحي، وفيما بدأ محمد ﷺ يتلقى المزيد من الوحي، فقد أخذ يطلع المقربين له على الرسالة، ولم يكن قد تلقى بعد تعليمات بشأن كيفية طرح الرسالة على شعبه، لكنه توقع أن يواجه معارضة شرسة، كما تنبأ بذلك ورقة بن نوفل.

أوائل الذين اعتنقوا الإسلام

بعد خديجة ـ رضي الله عنها ـ، زوجته وأول من اعتنق الإسلام، توسعت دائرة الذين قبلوا الرسالة بحيث تضمنت عائلته ثم أصدقاءه، وهكذا فقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو ابن عمه الذي كان يعيش في كنفه، وزيد رضي الله عنه، ابنه بالتبني، وأم أيمن، المربية التي تولت رعايته بعد عودته إلى مكة وهو في سن الرابعة، وصديق عمره الحميم أبو بكر رضي الله عنه من بين الأوائل الذين أدركوا حقيقة الرسالة ونطقوا بالشهادة، معربين بذلك عن اعتناقهم للإسلام: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». ازداد عدد الذين اعتنقوا الإسلام ببطء نتيجة دعوة النبي ﷺ الحذرة، وانخراط أبي بكر رضي الله عنه الذي ينطوي على التصميم الشديد، كان أبو بكر رضي الله عنه مستعداً دائماً للحديث عن الدين الجديد والعمل من أجله: فقد كان يشتري الرقيق من

أصحابهم ويحررهم انطلاقاً من مبادئ الإسلام، مؤكداً على مساواة البشر، في تلك السنوات كان وجود محمد ﷺ في مكة وأعماله وسلوكه النموذجي، كل ذلك كان يجذب عدداً كبيراً من النساء والرجال الذين أخذوا يعتنقون الدين الجديد الواحد تلو الآخر، غير أن عدد الذين اعتنقوا الدين الجديد ظل مع ذلك صغيراً خلال الأشهر القليلة الأولى، جاء في الأثر أنه خلال السنوات الثلاث الأولى، بلغ عدد المسلمين من قريش بين ثلاثين وأربعين فقط، كانوا يجتمعون مع النبي ﷺ في بيت أحد الذين اعتنقوا الإسلام، وهو الأرقم بن أبي الأرقم، ويتعلمون أسس دينهم فيما ظل الوحي ينزل عليه، ثم أخذ الجو المحيط يزداد عداءً عندما علم سكان مكة بأسس هذه الرسالة الجديدة وأثرها على الفقراء والشبان. وقد قرر النبي ﷺ، إدراكاً منه لذلك الثوران والأخطار المقبلة، التركيز بشكل حذر على تعليم جماعة صغيرة كان يعرف أنهم سيواجهون المعارضة والرفض، وعلى الأرجح، الإقصاء، ولقد كانت هذه الجماعة التي ظلت ثابتة في وجه الصعوبات والاضطهاد بفضل تربيتهم الروحية وصدق انتمائهم للدين الجديد، فمنذ البداية، كان النبي ﷺ يعطي الأولوية إلى النوعية بدلاً من الكمية، وكان يفضل الاهتمام بطبيعة القلوب والعقول التي كان يخاطبها وليس بالأعداد، فقد قام خلال السنوات الثلاث الأولى، بهدوء، بتكوين المجتمع الأول من المؤمنين، الذي تميز بأنه ضم، دون تمييز، نساء ورجالاً من كافة العشائر والفئات الاجتماعية (مع أن الغالبية كانوا من الشبان والفقراء).

الجهر بالدعوة

بعد تلك السنوات، أمره الوحي بالدعوة العلنية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]. ففهم النبي ﷺ أن عليه الآن تبليغ الرسالة إلى أفراد العشيرة

التـي كانت تربطـه بهم أواصر القرابة، فبدأ يدعوهـم إلى الإسلام. وفي أحد الأيـام، صعد إلى جبل الصفـا ودعا رؤساء القبائل فرداً فرداً. وقد ظن هؤلاء أن لديه خبراً مهماً يريد الإعلان عنه، فتجمعوا على سفح التل للإصغاء إليه، كانـوا لا يستطيعـون النظر إلى الوادي، من المكان الـذي وقفوا فيه، بينما كان محمد ﷺ مواجهاً له، فناداهم قائلاً: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريـد أن تغير عليكـم أكنتم مصدقيّ؟»، فأجابوا بصـوت واحد تقريباً: «نعم، مـا جربنا عليك إلا صدقاً!» فمضى النبي ﷺ يقول: «فإني نذير لكم بين يدي عـذاب شديد! لقد أمرني الله أن أنـذر عشيرتي الأقربين، لا أغني عنكم شيئاً في هـذه الحيـاة ولا أملك لكم نفعاً في الآخـرة، ما لم تؤمنـوا بوحدانية الله». ومضـى يقول: «إني كمن يـرى العدو ويعدو إلى قومه ليحذرهم قبل أن يؤخذوا علـى حين غرة، وهو يصيح وهو يعدو: «حذار! حـذار!»[2]. وجاء رد عمه أبي لهـب فـوراً وهو يتميز من الغيظ: «تبـاً لك! ألهذا جمعتنـا؟» ثم انصرف على الفـور وأخذ معه الرؤساء الذين تجمعوا: وهكـذا فقد كان يمثل الذين رفضوا رسالة محمد ﷺ وعارضوه ببالغ الشدة[3]، بعد ذلك، عندما أقام النبي ﷺ وليمتـين لعرض رسالته، فشلت الأولى لأن أبا لهب تدخـل ثانية لمنع ابن أخيه من الكلام، وفي الوليمة الثانية تمكن محمد ﷺ من إبلاغ فحوى رسالته، التي سمعها الحاضرون وقبلها سراً بعض أفراد عشيرته الذين دعاهم.

استقبـل أقاربه وكبـار القبيلة كلامه ببرود واستخفـاف لأنهم كانوا يدركون أن طبيعة رسالة محمد ﷺ تهدد التوازن العريق في مجتمعهم. فتلـك الرسالـة كانت تنطوي على تحـدٍ لآلهتهـم ولسلطاتهم، وفي ذلك مـا فيه من خطورة كبيرة، وظل محمد ﷺ يخاطـب أقاربه إلى أن نزل عليه وحي جديد يأمره باتخاذ موقف مباشر وحاسم: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[4].

وهكـذا فقد دخلت الرسالة النبويـة في مرحلة جديدة، لقد توجهت الآن إلى الناس كافة واقتضت التمييز بين التوحيد، أي الإيمان بإله واحد، وشرك قريشـ في تعـدد آلهتهم، وكان النبي ﷺ قد جمع حولـه صفوة من النساء والرجال الصادقين المخلصين، كان بعضهم من أقاربه، ولكن كان الكثيرون غيرهم من فئـات اجتماعية وقبائل مختلفـة، وكان يزودهم بتعاليم روحية ودينيـة طيلة السنوات الثـلاث السابقة، وكان من المقدر لهـم أن يواجهوا، بثبات وصبر، الرفض والاضطهاد والإقصاء في مجتمع مكي بدأ يتصدع.

الرسالة

في سنوات الوحي الأولى، أخذت الرسالة القرآنية تتمحور تدريجاً حول أربعة محـاور: وحدانية الله، مركز القرآن، الصـلاة، والحياة بعد الموت. فقـد دعي المسلمون الأوائل إلى تحول روحي عميق وجذري، وقد فهم ذلك جيـداً الخصوم ضمن عشائرهم، الذين كانوا يخشون من الثوران الذي لا بد أن يسببه الدين الجديد في معتقدات مجتمعهم وتنظيمه.

التوحيد

أكدت الرسالة القرآنيـة بالدرجة الأولى على التوحيد، فبالإضافة إلى فكـرة الله كـرب، والتـي رأيناها تنبثـق في مناسبات الوحـي الأولى، فقد ظهـر الاسـم الإلهي، اسـم الله بالطبع، فضـلاً عن العبـارات التي تقرن وجـوده بالسلام والرحمة، وهكذا فقد خاطب جبريل النبي ﷺ بعبارات: «السـلام عليكم يا رسول الله» و«سـلام الله ورحمته عليك». وقد استخدم المسلمون تلك العبارات منذ البداية في تحية بعضهم بعضاً والدعاء إلى الله باسميه الاثنين: السـلام والرحمن، كما أن كل سورة من سور القرآن تبدأ بعبـارة بسملة يستدعي المتكلم بها وجـود الواحد الأحد وصفاته القدسية:

«بسم الله الرحمن الرحيم» وقد جعل القرآن منذ البداية اسم «الرحمن» معادلاً لاسم «الله»: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[5].

هذه الإشارة الدائمة إلى الواحد الأحد ومختلف أسمائه شيء أساسي. بل إنها هي التي تحدد نوع العلاقة التي أقامها المؤمنون الأوائل مع الله: إدراك وجوده والتأكد من أن كرمه هو نعمة منه ووعد بالسلام، وقد تضمنت ذلك بأوضح وجه سورة «الرحمن» التي تخاطب معشر الإنس والجان وتدعوهم إلى التفكر وإدراك وجوده وإنعامه[6].

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾[7].

مركز القرآن

كل شيء من الطبيعة إلى مقتضيات الأخلاق والإنصاف في السلوك البشري، يذكر بالخالق وتجليه الأساسي بالخير والرحمة. بل إنه أنزل النص ذاته باسم رحمته للبشر. فالوحي هو منحة وعبء على السواء. وهذا، من أول الأمر، يطرح المحور الثاني للتعاليم الأولى للإسلام. إن مركز القرآن – الذي يقيم الصلة، في الآيات المذكورة أعلاه، بين الله والبشرية – هو أحد أسس العقيدة الإسلامية[8]. فالقرآن هو كلام الله الذي أوحي به بهذه الصفة إلى البشرية ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ وهو في

الوقت نفسه نذير ونور وإعجاز[9]. إنه تذكرة لرسائل التوحيد السالفة، نور الهدى الإلهي للمستقبل، ومعجزة الكلمة الخالدة التي ليس لها مثيل المرسلة إلى البشر في صميم تاريخهم.

منذ البداية، يتجلى القرآن كمرآة للكون. إن كلمة (Verse) التي استخدمها المترجمون الغربيون الأوائل ـ من منطلق مفردات الكتاب المقدس ـ تعني حرفياً «علامة» (آية). فالكتاب الموحى به، النص المكتوب، يتكون من آيات، على غرار الكون، مثل نص منشور أمام أعيننا، يعج بالآيات. فعندما يقرأ عقل القلب، ليس العقل التحليلي فقط، القرآن والعالم، فإنه يجد أن النصين يتوجهان إلى بعضهما وأنهما صدى لبعضهما، وأن كلاً منهما يتحدث عن الآخر وعن الواحد الأحد. فالآيات تذكرنا بمعنى أن نولد ونعيش ونفكر ونشعر ونموت.

فالقرآن بما يتصف به من شكل ومحتويات مثيرة، فضلاً عن قوته الروحية، هو معجزة الإسلام. كما أنه يمثل مسؤولية كبيرة ومزدوجة للمسلمين: على صعيد المتطلبات الأخلاقية التي تطبعها فينا التعاليم القرآنية ومن حيث قدرتها على أن تكون شاهدة على ذات التعاليم المطروحة على البشر، على السواء. هذا البعد يظهر منذ أوائل الوحي، فسورة «المزمل»، وهي من أوائل الوحي تنطوي على نذير: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا»[10]. وتستخدم آية أخرى صورة قوية التعبير عن الصفة الروحية للقرآن: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾[11]. فالوحي يفصح عن نفسه بأنه نذير خير وأمر أخلاقي شديد الحزم ينشر الإلهام الروحي بقدر ما ينظم الشكل الواضح للطقوس الدينية.

الصلاة

بينما كان محمد ﷺ يسير في أنحاء مكة، جاءه الملك جبريل، وعلمه كيفية الوضوء وأداء فرض الصلاة[12]. هذه التعاليم جاءت في وقت مبكر جداً، حيث إنها فرضت على الفور عمل التطهر بالماء مع الأمر بأداء الصلاة التي تقوم على تلاوة القرآن وعلى سلسلة من الركعات، وقد نفذ النبي ﷺ تعليمات جبريل الواحدة تلو الأخرى، وعاد إلى البيت ليعلم زوجته خديجة ـ رضي الله عنها ـ كيفية أداء الصلاة، في تلك السنوات الأولى، كانت الصلاة المفروضة تمارس مرتين في اليوم فقط، صباحاً ومساءً.

وتشير سورة المزمل المشار إليها آنفاً إلى صلاة الليل التي أصبحت واجبة على كافة المسلمين في بداية الحقبة المكية وبقيت على تلك الحال إلى أن تم في خاتمة المطاف فرض الصلوات الخمس في كل يوم، كان التدريب الروحي والشعائر ينطويان على متطلبات ثقيلة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨﴾[13].

في قلب مكة، وفي بيئة متزايدة العداء، كان النساء والرجال الذين اعتنقوا الإسلام يتعلمون بلا توقف، وبهدوء: فقد كانوا يقومون الليل ويصلون مدة طويلة، ويتلون عن ظهر قلب آيات القرآن التي جعلها الواحد الأحد الصلة الفضلى بين وده اللامتناهي وقلب كل كائن. هذا التأهيل الروحاني الراقي هوالذي كون الخصائص المهمة للمؤمنين الأوائل: كان هؤلاء الأتقياء والراشدون والحازمون يصلون إلى إله

الرحمة والسلام، ويتلون القرآن الموحى به، الذي هو ذكر ونور ويسيرون على خطى خاتم الأنبياء وتعاليمه، إن جوهر الرسالة الإسلامية يتجسد كلياً في علاقة الثقة والمحبة الحميمة بالعلي الأعلى ويقيم صلة مباشرة بين الفرد وخالقه، الذي شاء إظهار السلوك الأسمى من خلال رسول، من البشر، أرسله ليكون قدوة للبشر، وقد جمعت ثلاث آيات لاحقاً الجوهر الحقيقي لهذه التعاليم:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[14].

في قلب هذه العلاقة الحميمة، يفتح النبي الطريق:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[15].

وهو مثال الإنسان الذي يتوق إلى الإله الذي يتجاوز محدودية الحياة:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[16].

لقد عاش المؤمنون الأوائل على هذه التعاليم: ففي صلواتهم كانوا يتوجهون إلى القدس، معربين بذلك عن الرابطة الواضحة بين هذه الرسالة والتوحيد في اليهودية والنصرانية، اللتين لهما ذات التطلعات إلى الأبدية والحياة في الآخرة.

openkandil.com

الآخرة واليوم الآخر

تكرر آيات القرآن موضوع الحياة بعد الموت، ففي مواجهة عدم تصديق الناس، يعتمد القرآن، كما رأينا في فصول سابقة، على أمثلة مستقاة من الطبيعة، وعلى وجه التحديد من الصحراء، التي تبدو وكأنها أرض ميتة، تهتز وتربو بعد نزول المطر، وفي وقت مبكر جداً توجه اهتمام النبي بالدرجة الأولى إلى هذه الحياة الأخرى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[17].

وفي واقع الأمر، لم يكن مقصود الرسالة بكل وضوح تهدئة الشكوك والمخاوف بشأن الموت الذي لا مفر منه بل كان غرس الاعتقاد الراسخ في عقول المؤمنين وقلوبهم بأن لهذه الحياة معنى، وأننا إلى الله راجعون. إن هذه التذكرة المتواصلة بالآخرة تؤكد بالفعل على اليوم الآخر، يوم الحساب، الذي يقيم الله فيه الميزان بين الخير والشر والمسؤول عنهما كل كائن خلال حياته الدنيوية، وبالتالي، فإن إدراك اليوم الآخر يشير إلى العلاقة بين الإيمان والأخلاق، بين التأمل والعمل: إن «الطريق المستقيم» الذي يرضى عنه العلي الأعلى هو طريق ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[18].

وهكذا فأن يكون الإنسان مع الله ولله وأن يكرس نفسه لله ينطوي على «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»؛ إنه السعي لتحقيق مقتضى الأخلاق[19]. أن يكون الإنسان مع الله يستتبع بالضرورة تغيير السلوك والانضمام إلى ﴿أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[20]. إن الإسلام، كغيره من أديان التوحيد، يؤكد على الرجوع إلى الله، على حكمه، على الجنة والنار، وتقرن آيات عديدة معنى الحياة بالآخرة، في التجربة الروحية التي تحدد معنى الحياة وتربطها بمقتضى السلوك الأخلاقي، تعد هذه المرحلة التمهيدية شيئاً أساسياً، رغم أنها ليست التعاليم النهائية عن العلاقة بالله، إن ذروة

العلاقة مع من هو أقرب إلينا من حبل الوريد، والتي تتجاوز الطمع في جنته والخوف من ناره، هي محبته والطموح إلى النظر إلى وجهه الكريم إلى الأبد، كما علم النبي ﷺ صحابته لاحقاً بهذا الدعاء: «اللهم امنن علينا بالنظر إلى وجهك الكريم». إن المقتضى الأخلاقي هو الذي يشكل الطريق اللازم إلى القرب الحميم من الله والمليء بالمحبة.

الشدائد

انتقلت الدعوة الآن إلى العلن، ومع أن الإرشاد الذي كان يناله الداخلون حديثاً في الإسلام في دار الأرقم كان يتصف بالحذر، إلا أنهم لم يكونوا ليترددوا في التحدث مع أقربائهم وإلى من حولهم، فيوماً بعد يوم كان يزداد إدراك رؤساء العشائر للخطر الذي كان يشكله الدين الجديد: لقد كان تمرداً صريحاً ومباشراً على آلهتهم وتقاليدهم، وكان سيعرض سلطة الرؤساء للخطر في خاتمة المطاف، فقرروا في بادئ الأمر إرسال وفد إلى عم النبي ﷺ، أبي طالب، الذي كان حتى ذلك الوقت يحمي ابن أخيه. فطلبوا منه أن يتحدث إلى محمد ﷺ ويطلب منه التوقف عن نشر رسالته، التي كانوا يعتبرونها خطرة وغير مقبولة لأنها كانت تهاجم آلهتهم وتراث أسلافهم مباشرة، لكن أبا طالب لم يفعل شيئاً بعد زيارتهم الأولى، فعادوا وأكدوا له أن المسألة شديدة الإلحاح، عندئذٍ أرسل أبو طالب يطلب ابن أخيه وحاول إقناعه بإنهاء أعماله حتى لا يضعه في موقف حرج، كان رد محمد ﷺ حازماً: «والله يا عماه، لئن وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أَهْلَكَ دونه!»[21]. أمام هذا التصميم، لم يصر أبو طالب، بل أكد للنبي ﷺ استمرار دعمه له، ثم جاء للنبي ﷺ وفد آخر وعرض عليه المال والجاه

والسلطـة، فرفض عروضهم الواحد تلـو الآخر وأكد لهم تمسكه برسالته: وهي دعوة الناس إلى معرفة الله والإيمان به، مهما كان الثمن.

> ما بي وما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولكن الله بعثني عليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيـراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم. فـإن تقبلوا مـا جئتكم به فهـو حظكم في الدنيـا والآخرة، وإن تردوه علـي أصبر لأمر الله حتى يحكـم الله بيني وبينكم[22].

بهذه الكلمات وضع محمد ﷺ حداً لإمكان القبول بحل وسط: فهو لن يتوقف عن إبلاغ رسالته، ويتوكل على الله ويصبر على عواقب هذا القرار في هذه الدنيا. وكانت الأعمال العدائية قد بدأت في هذه المرحلة: فقد دأب رؤسـاء العشائر علـى توجيه الإهانات للنبي ﷺ وكانـوا ينعتونه بالجنون وأن به مساً أو أنه ساحر. وأرغم عمه أبو لهب ابنيه على طلاق ابنتي النبي ﷺ، اللتـين كانا قـد تزوجاهما، في حين أن زوجته كانـت تعمد إلى إلقاء القمامة في الطريق عند مرور محمد ﷺ.

وانتشـرت الإشاعـات بأن محمداً ﷺ كان ساحـراً في واقع الأمر، وأنه فرق الأسر وفصل الآباء والأمهات عن أولادهم والأزواج عن زوجاتهم وأنه مثـير للمتاعب، وعند اقتراب موعد السـوق السنوية عمل رؤساء العشائر، انطلاقـاً من خوفهم من قيام محمد ﷺ بنشر رسالته بين الزائرين، إلى توزيع الرجـال على مختلف مداخل مكة لتحذيـر القادمين من الزوار من الأذى الـذي سببه محمـد ﷺ وأصحابه، وقد نجحـت استراتيجية عزله عنهم نجاحاً كبيراً، مع أن البعض لم يسمحوا لأنفسهم بأن يتأثروا. ومنهم قاطـع الطريق أبو ذر الغفاري، فعند سماعه بهـذه الرسالة الجديدة التي

تدعـو للإيمان بإله واحد، ذهب إلى النبي ﷺ رغم تحذيرات القرشيين. فوجـد محمـداً ﷺ مستلقيـاً في الظل قـرب الكعبة، فنـادى على محمد بالاسم وسأله عن رسالته فأصغى إليه ثم نطق على الفور بالشهادة، الأمر الذي أدهش النبي ﷺ الذي قال وهو ينظر إليه: «إن الله يهدي من يشاء!» وقـد أصبح أبو ذر رضي الله عنه لاحقاً من أشهـر صحابة النبي ﷺ؛ وكان معروفاً بتفانيه وشدته واستنكاره للترف والكسل.

كان النبي ﷺ يتعرض لـلأذى والسخرية، وكان الناس يطلبون منه أن يأتـي بالمعجـزات والأدلـة، فكان لا يفتـأ يجيبهم بما أنـزل عليه من القـرآن: «إن أنـا إلا رسـول!» وازداد الضغط وبدأت مظاهـر المعارضة العنيفـة تظهر بشكل متزايـد، وكان رؤساء العشائر يشاركون في التعدي بشكل خاص على فقراء المسلمين الذين لم يكن لهم من يحميهم من أي مـن العشائـر. فكان بلال الرقيق يُقيد من قبـل مالكه في الصحراء، في الشمـس المحرقة. وكان مالكه يضع حجراً كبيراً على بطنه لإجباره على التخلي عن دينه، لكن بلالاً رضي الله عنه ظل يردد «أحد، أحد». ثم اشترى أبوبكر رضي الله عنه بلالاً (كما كان يفعـل بالكثيرين من الرقيق الآخرين) وأطلقه. وقد أصبـح بلال رضي الله عنه لاحقـاً مؤذن المدينة ويحظى باحـترام الجميع لصدق إيمانه وإخلاصه وجمال صوته[23].

ثـم أصبح رجل من قبيلة مخـزوم، واسمه عَمرو، يعـبر عن معارضته للإسـلام بأقسـى طريقة ممكنـة، وكان أقرباؤه يسمونـه أبا الحكم، لكن المسلمـين الذيـن رأوا رفضه رؤية الحق وخشونته، سمـوه أبا جهل، فذهب مـرة للقاء النبـي ﷺ ووجه إليه الإهانات التي تنـم عن درجة من الحقد جعلت الذين سمعوه، رغم كونهم غير مسلمين، يقولون بأنه تجاوز مفاهيم الشـرف جراء إهانة محمد ﷺ بهذه الطريقة، عندما سمع بذلك حمزة،

عـم النبي، انبرى إلى أبي جهل وهدده بالانتقام منه إذا كرر ما فعله بهذه الطريقـة، وأعلـن في الوقت نفسـه، بأنه اعتنق هـو نفسه الإسـلام، وأنه سيتولى الآن هو نفسه حماية ابن أخيه[24].

فتوقف أبو جهل عن إهانة محمد ﷺ: وبدلاً من ذلك، فقد أخذ يسيئ إلى أفقر الصحابـة، وأشدهم تأثراً، وكان عمّار رضي الله عنه، وهو شاب من أصل يمنـي، قد اعتنق الإسـلام منذ أوائـل الدعوة وتأهل على يـد النبي ﷺ في دار الأرقـم، ثم أسلـم أبوه ياسر، ثم أمه، سميـة، بعده بفترة وجيزة، وانخرطـا بهمة كبيرة في تعلم الدين الجديد، فاختارهم أبو جهل ليكونوا موضعاً لكراهيته وانتقامه: فـكان يضربهم ويقيدهم في الشمس المحرقة ويعذبهم، ولم يكـن النبي ﷺ يستطيع فعل أي شيء بسبب الطابع المعقد للتحالفات بين العشائر، فكان يرى هذه المعاملة المهينة دون أن يتمكن من التدخـل، فمر يوماً بياسر وزوجته، اللذين كانـا يعانيان من سوء المعاملة فقال لهمـا: «صبراً آل ياسر، فـإن موعدكم الجنة». ولكـن رغم عمليات التعذيب تلك، والتي استمرت لأسابيع، كانت سمية وزوجها ياسر يرفضان التخلـي عن دينهما، بـل إن سمية كانت تصرخ في وجه أبي جهل وتندد به وبسلوكـه الذي ينم عـن الجبن، وقد أثار ذلك غضبـه فظل يطعنها حتى ماتت، ثم التفت، وهو في ثورة غضبه ذاتها، إلى زوجها وظل يضربه حتى مـات أيضـاً، فكانت سمية وياسـر أول شهيدين في الإسـلام: حيث جرى اضطهادهمـا وتعذيبهمـا ثم قتلهمـا لرفضهما الكفر بـالله وبواحدانيته وصدق وحيه[25].

أخـذت الأوضـاع تزداد سـوءاً بالنسبـة للمسلمـين، لاسيمـا بالنسبة لأشدهـم تأثراً وضعفاً من حيث المركـز الاجتماعي والانتساب العشائري. كانـت حمايته منوطة بعميه أبي طالب وحمـزة، لكن هذه الحماية لم تكن

تشمل بأي حال من الأحوال الجماعة الروحية الأولى للمسلمين، وأصبحت القاعدة هي الإهانات والرفض وسوء المعاملة، وأخذ محمدﷺ يبحث عن حل لتخفيف الفتن والآلام التي كان يعاني منها المسلمون الأوائل، ففكر بالاتصال بالوليد، رئيس عشيرة مخزوم، التي كان أبو جهل ينتمي إليها؛ وكان الوليد يتمتع بسلطة كبيرة على المجتمع المكي برمته، فإذا استطاع النبي ﷺ إقناعه بصدق رسالته، أو جعله على الأقل يتشفع للمسلمين ويوقف عمليات اضطهادهم، فإن هذا سيكون إنجازاً لنفسه ولأصحابه. ولكن فيما كان يطرح أفكاره ويحاول كسب دعم الوليد، قاطعه رجل أعمى، فقير الحال وكبير السن، كان قد اعتنق الإسلام حديثاً وأخذ يطلب إليه تلاوة بعض سور القرآن عليه، في أول الأمر أشاح محمد ﷺ بوجهه بهدوء، لكنه سرعان ما شعر بالضيق جراء إلحاح الرجل المسن الذي كان يحول دونه وطرح قضيته على الوليد، الذي كان شديد الازدراء ورفض في خاتمة المطاف مجرد سماع أقوال النبي ﷺ. وقد نزلت سورة جراء هذه الواقعة طالبةً من المسلمين استقاء العبرة الأزلية منها:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾[26].

لقد تعرض النبي ﷺ، في اندفاعه لحماية جماعته، إلى عتاب ربه، الذي علمه ألا يشيح عن أي كائن، بصرف النظر عن الظروف الصعبة التي يمكن أن يكون الرسول يواجهها، حتى وإن كان الشخص فقيراً أو مسناً

أو أعمى، ففي سعي النبي ﷺ للحصول على حماية شخص بارز مفيد من الناحية الاجتماعية والسياسية، أهمل رجلاً فقيراً، لا أهمية له لقضيته، من حيث الظاهر، ينشد العزاء الروحي، وقد سجل القرآن هذه الغلطة، هذا الانزلاق، معلماً المسلمين من خلال هذه القصة عدم إهمال أي كائن بشري أبداً، وعدم الابتعاد عن الفقراء والمعوزين، بل أهاب بهم خدمتهم ومحبتهم، ولم يكن النبي ﷺ لينسى هذا الدرس، وكان دائماً يدعو الله قائلاً: «اللهم ارزقنا التقى والعفاف والغنى وحب المساكين»[27].

وهكذا فقد كان النبي ﷺ قدوة للمسلمين لا من حيث سلوكه المتميز فحسب بل أيضاً من حيث نقاط الضعف في إنسانيته، التي ذكرها القرآن حتى لا تنسى ضمائر المسلمين أبداً هذه الرسالة عبر الأزمنة، لا يجوز لأحد أبداً أن يدع المصالح الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية تلفته عن الناس الآخرين، عن الاهتمام والاحترام الواجبين لهم، فلا يجوز لشيئ أن يجعل الإنسان يتساهل في هذا المبدأ الإيماني من أجل إستراتيجية سياسية ترمي إلى إنقاذ أو حماية جماعة من خطر من الأخطار، إن قلباً صادقاً يقدمه فرد صادق فقير لا حول له ولا قوة أفضل ألف مرة عند الله من قلب إنسان غني يهتم بمصالحه ويكون محور سعي للملاطفة والمجاملة.

وقد كان النبي ﷺ يسعى دائماً لأن يكون قدوة شاهداً على هذه الرسالة، لكن المسلمين، عبر تاريخهم، كثيراً ما نسوا وأهملوا هذه الدعوة في معاملة المعوزين باحترام والحفاظ على كرامتهم، وحتى في حياة النبي ﷺ، تحدث أحد الصحابة، أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، الذي أتينا على ذكره آنفاً، بطريقة شديدة وحازمة منتقداً نقائص بعض المسلمين الذين ينقادون بشكل متزايد إلى السلطة والراحة والثروة، فقد رأى في

ذلك بداية لعكس النظام الروحي، ودليلاً على ابتعاد شديد، والعلامات الأولى لوقوع كوارث جرى التنبؤ بها. ولقد علمنا التاريخ، منذ ذلك الوقت، بما كان يحفل به من أمثلة على التعطش للسلطة والثروة والتساهل بالمبادئ، صدق هذا الحدس، ولا يزال يتردد صدى تحذيرات النبي ﷺ لنا في أذهاننا، حيث خاطب أمته الروحية القادمة عبر القرون: «لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال»[28].

obeikandl.com